

## البُعد الروحي في الإنسان.. موقعه والموقف منه



انسجاماً مع الاتجاه الواقعي الذي يلتزمه الإسلام الحنيف في تعامله مع الأشياء والحقائق والأحداث، فقد تبنّى الإسلام نهجاً متميزاً في تلبية المطالب الروحية لدى الإنسان، يحرص هذا المنهج على تلبية مطالب الأشواق الروحية لدى الإنسان من خلال أفضل السُّبُل وأقومها، مع المحافظة على خطّة التوازن بينها وبين المطالب المادّية في كيان الإنسان، وقد كان المنهج التربوي الذي سلكه الإسلام الحنيف وفق هذين المحورين فريداً متميزاً يجعل الإنسان المسلم دائم التسبيح، دائم الاتصال ودائم الذِّكْر بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فصحيح أنّ الصلوات والصيام والدُّعَاءَ وقراءة القرآن الكريم والاستغفار والأوراد وما إليها ينابيع روحية، تمدّ جسور الصلة بالواحد الأحد، فتسبح فيها الأشواق الروحية، تمدّ جسور الصلة بالواحد الأحد، فتسبح فيها الأشواق الروحية مسبّحة ذاكرة، فينقلب الإنسان ربيّاً رويّاً راضياً، إلا أنّها ليست نهاية المطاف.

فالإسلام الحنيف يعطي العبادة مفهوماً شاملاً عميقاً إذ كلُّ عمل يعملهُ الإنسان تلبية واطاعة بِعِزِّ وَجَلِّ فهو عبادة، وكلُّ أمر ينأى ابن آدم عنه تفرّساً وطلباً للثواب فهو عبادة، وكلُّ سبيل يسلكه المؤمن وقد ندب الباري عزّ وجلّ إليه، فهو عبادة.

وهكذا يكون المسلم الذي هذا نهجه وكأني في خشوع دائم وتطلُّع دائم إلى الله عز وجل تجسيدا لقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام/ 162).

إنه في عبادة وهو في محرابه، كما هو في عبادة وهو في مكتبه، وهو في عبادة عندما يكون في متجره وعبادته أو قاعدة درسه أو ساحة جهاده، إنه الاتصال الدائم بالله عز وجل، واستشعار وجوده، وعظمته في كل آن.

على أن الإسلام الحنيف قد وضع محطات دائمة أخرى على طريق المسيرة الإنسانية هي غير الصلاة والصيام وما إليها، فهناك:

- استشعار وجود الله تعالى فيما حول الإنسان من حقائق وأشياء ومخلوقات تملأ ساحة النفس والآفاق، في السماء والأرض والحيوان والنبات والجماد، وكل ذلك دقيق وجليل فضلا عن الإنسان هذا المخلوق العجيب.
- المراقبة الدائمة الواعية لله تعالى، واستشعار مخافته والشعور بهيمنته في كل حقل وفكرة ونشاط.
- التوكل على الله تعالى في الأمور كلها.
- اللجوء إلى الله والتسليم له جل شأنه وعلا.
- التقوى والعمل الصالح كما شاء الله رب العالمين.

إن القرآن الكريم مليء بالآيات الموقظة الموحية التي تعمق تلك المبادئ الهادية. ففي حقل الشعور بعظمة الله عز وجل من خلال مخلوقاته نقرأ هذا النموذج: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُهُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُهُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ \* وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ

حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَاكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ  
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي  
اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَُمُ اللَّهَ  
رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ  
(فاطر/ 11-13).

وفي حقل مراقبة □ تعالى الدائمة للعباد يقول عز وجل: □ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا  
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ  
وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ  
أَيَّنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ □ (المجادلة/ 7).

□ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ \* سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَرَ  
الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ □  
(الرعد/ 9-10).

ويسلط القرآن الضوء على قيمة الخشوع والتقوى □ تعالى وآثارها العظيمة في مسيرة المؤمنين، فيقول  
تبارك وتعالى: □ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ \* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ \*  
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ \*  
وَالَّذِينَ هُمْ لِغُفْرَتِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ  
أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلْأومِينَ \* فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ  
الْعَادُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى  
صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ \* أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ \* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ  
هُمُ فِيهَا خَالِدُونَ □ (المؤمنون/ 1-11).

وفي القرآن الكريم العديد من الآيات الكريمة التي تحثُّ على التوكل والصبر والتسليم □ ربُّ  
العالمين.

وحول المحاور التي أشرنا إليها يتحدث أمير المؤمنين (ع) حديث العبرة والتدبير والتعليم.

فحول حقيقة التقوى وأبعادها يقول عليّ (ع): «فَاتَّقُوا اللَّهَ تَقِيَّةً مِّن سَمْعٍ فَخَشَعَ واقتربَ فاعترفَ ووَجَلَ فَعَمِلَ وَحَذَرَ فَبَادَرَ وَأَيَّقَنَ فَأَحْسَنَ وَعُيِّبَرَ فاعْتَبَرَ وَحُذِّرَ فَحَذَرَ وَزُجِرَ فَازْدَجَرَ وَأَجَابَ فَأَنَابَ وَرَاجَعَ فَتَابَ واقتدى فاحتذى وأُرِيَ فَرَأَى فَأَسْرَعَ طَالِبًا وَنَجَا هَارِبًا فَأَفَادَ ذَخِيرَةً وَأَطَابَ سَرِيرَةً وَعَمَّرَ مَعَادًا وَاسْتَظْهَرَ زَادًا لِيَوْمِ رَحِيلِهِ وَوَجَّهَ سَبِيلَهُ وَحَالَ حَاجَتَهُ وَمَوْطِنَ فِاقَتِهِ وَقَدَّمَ أَمَامَهُ لِدَارِ مُقَامِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ جَهَةً مَا خَلَقَكُمْ لَهُ واحذَرُوا مِنْهُ كُنْهَ مَا حَذَّرَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ واستحَقُّوا مِنْهُ مَا أَعَدَّ لَكُمْ بِالتَّزَجُّرِ لصدق معاده والحَذَرَ مِنْ هَوْلِ مَعَادِهِ» [1].

وحول محاسبة النفس وإشعارها بحقيقة وجودها وهدفها يقول الإمام (ع): «عِبَادَ اللَّهِ زِنُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُوَزَّنُوا وَحَاسِبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تُحَاسَبُوا وَتَنْفَسُوا قَبْلَ ضَيْقِ الْخِنَاقِ وَانْقَادُوا قَبْلَ عُنْفِ السَّيِّاقِ واعلاموا أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُعَنَّ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ مِنْهَا وَاعِظُوا وَزَجِرُوا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ غَيْرِهَا لَازِجًا وَلَا وَاعِظًا» [2].

وفي أهميَّة أركان الإسلام وذكر الله عزَّ وجلَّ يتحدَّث الإمام عليّ (ع) فيقول: «إِنَّ أَفْضَلَ مَا تَوْسَّلُ بِهِ الْمُتَوْسِّلُونَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ الْإِيمَانُ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ، فَإِنَّهُ ذُرْوَةُ الْإِسْلَامِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ فَإِنَّهَا الْفِطْرَةُ. وَإِقَامُ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا الْمَلَّةُ. وَإِبْتَاءُ الزَّكَاةِ فَإِنَّهَا فَرِيضَةٌ وَاجِبَةٌ. وَصَوْمُ شَهْرِ رَمَضَانَ فَإِنَّهُ جَنَّةٌ مِنَ الْعِقَابِ. وَحُجُّ الْبَيْتِ وَاعْتِمَارُهُ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَيَرْحِضَانِ الذَّنْبَ. وَصَلَةُ الرَّحِمِ، فَإِنَّهَا مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ، وَمَنْسَأَةٌ فِي الْأَجْلِ. وَصَدَقَةُ السَّرِّ فَإِنَّهَا تَكْفِّرُ الْخَطِيئَةَ. وَصَدَقَةُ الْعِلَانِيَةِ فَإِنَّهَا تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ. وَصَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ فَإِنَّهَا تَقِي مَصَارِعَ الْهَوَانِ.

أفيضوا في ذكر الله فَإِنَّهَا أَحْسَنُ الذِّكْرِ وَارْغَبُوا فِي وَعْدِ الْمُتَّقِينَ فَإِنَّ وَعْدَهُ أَصْدَقُ الْوَعْدِ، وَاقْتَدُوا بِهَدْيِ نَبِيِّكُمْ فَإِنَّهُ أَفْضَلُ الْهَدْيِ، وَاسْتَنْبُوا بِسُنَّتِهِ فَإِنَّهَا أَهْدَى السُّنَنِ» [3].

وحول الموت يقول أمير المؤمنين (ع): «أَوْلَيْسَ لَكُمْ فِي آثَارِ الْأَوْلِيَّيْنَ مُزْدَجَرٌ، وَفِي آبَائِكُمُ الْمَاضِينَ تَبْصِيرَةٌ وَمُعْتَبَرٌ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ، أَوْلِم تَرَوَا إِلَى الْمَاضِينَ مِنْكُمْ لَا يَرْجِعُونَ، وَإِلَى الْخَلْفِ الْبَاقِي لَا يَبْقَوْنَ! أَوْلَسْتُمْ تَرَوْنَ أَهْلَ الدُّنْيَا يُمَسُّونَ وَيُصْبِحُونَ عَلَى أَحْوَالِ شَتَّى، فَمَيِّتٌ يُبْكِي، وَآخِرٌ يُعْزِي، وَصَرِيحٌ مُبْتَلَى، وَعَائِدٌ يَعُودُ، وَآخِرٌ يَنْفَسُهُ يَجُودُ، وَطَالِبٌ لِلدُّنْيَا وَالْمَوْتُ يَطْلُبُهُ، وَغَافِلٌ وَلَيْسَ بِمَغْفُولٍ عَنْهُ. وَعَلَى أَثَرِ الْمَاضِي مَا يَمْضِي الْبَاقِي.

ألا فاذكروا هادم اللذات، ومنعص الشهوات، وقاطع الأُمنيات، عند المساورة للأعمال القبيحة، واستعينوا [ ] على أداء واجب حقّه ولا يحصى من أعداد نِعَمِهِ وإِحسانِهِ» [4].

وهكذا شرّع الإسلام الحنيف من سبيل معرفة [ ] عزّ وجلّ، ووسائل الانشداد إليه عزّ وجلّ وطُرُق الارتباط به الشيء الكثير [ ] لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ [ ] (ق / 37).

وهنا تتجلّى العلامة الفارقة بين شريعة [ ] الخاتمة والنصرانية الحالية التي تعطي للعبادة لونا باهتا محصورا في إطار طقوس كنسية خاوية لا تستجيب لطموحات الروح ولا تروي ظمأها، ولا تشبع جوعتها، إضافة إلى أن النصرانية المعاصرة تعطي للعبادة مفهوماً ضيقاً لا تتعدى إطار الطقوس التي يؤدّها النصارى في أيّام الآحاد.

وبناءً على ذلك يكون أتباع الكنيسة قد اختطّوا اليوم منهجاً غريباً يقضي «بتقسيم الحقوق» بين الإنسان وبين [ ] تعالى، ف[ ] يصلّون في الكنيسة ويقرؤون الأناجيل مثلاً، بينما يمكنون الإنسان من رسم طريقه في الحياة وفقاً لمشيئته، فيشرع حسب مقتضيات مصالحه، ويقنّن وفقاً لما تملي عليه رغباته وأهواؤه.

وقد كشف القرآن الكريم عن أخطاء التصوّر النصراني الكنسي، وأنحى باللائمة على النصارى الذين حصروا عبادة [ ] في زاوية محدودة، في حين أعطوا منظرهم وقادة الرأي فيهم حقّ التشريع والتقنين، قال تعالى: [ ] اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًُا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ [ ] (التوبة / 31).

ولقد أوضح الإمام جعفر بن محمد الصادق (ع) المفهوم الذي طرحته الآية الكريمة الآنف الذكر، حيث قال (ع): «أما و [ ] ما دعّوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعّوهم ما أجابوهم ولكن أحلّوا لهم حرّاماً وحرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون» [5].

غير أن إنسان الإسلام يرسم شوطه في الحياة، بإجراء التوافق بين مصالحه، ومراد [ ] عزّ وجلّ، ف [ ] هو الخالق، و [ ] هو المُدبّر لشؤون البشر وحياتهم.

[ ] أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [ ] (الأعراف / 54).

إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (يوسف/ 40).

والمُسلم في المنطق الإسلامي عابد يتلقى ما يأمره ربه تعالى بالتسليم والطاعة، فليس له أن يخالف منهج الله، وليس له أن يشرع قبل شرعه الكريم؛ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونُوا لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (الأحزاب/ 36).

على أن المشرّع الأعلى عز وجل قد ضمن للإنسان من جانبه تلبية شريعته الغراء لكل متطلّبات الإنسان وطموحاته ومستجيبة لكل حاجته الفطرية ومشاكله المستجدة لتضمن الشريعة الإلهية للمُسلم - من خلال ذلك - . وهذا الموقف من الرسالة - موقف التغطية لكل الحاجة الأساسية للإنسان - موقف واقعي بالصميم، فقد علم الله سبحانه وتعالى أن حياة الإنسان من شأنها التحوّل والتغير والتطور.

[1]- المصدر نفسه، الخطبة 83، ص109 - 110.

[2]- المصدر نفسه، الخطبة 90، ص123.

[3]- المصدر نفسه، الخطبة رقم 110، ص163.

[4]- المصدر السابق نفسه، الخطبة 99، ص145.

[5]- تفسير الميزان، ج9، البحث الروائي، ص254.